آفاق

«ملحق العدد 73»

ملحق العدد 73 يوم الجمعة 1 شعبان 1446هـ الموافق 31 يناير/ كانون الثاني 2025م.

1

جريدة إلكترونية شهرية ثقافية منوعة تصدر عن مؤسسة البيان للعلوم والمعرفة

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هَوى)

"شئتَ أم أبيت

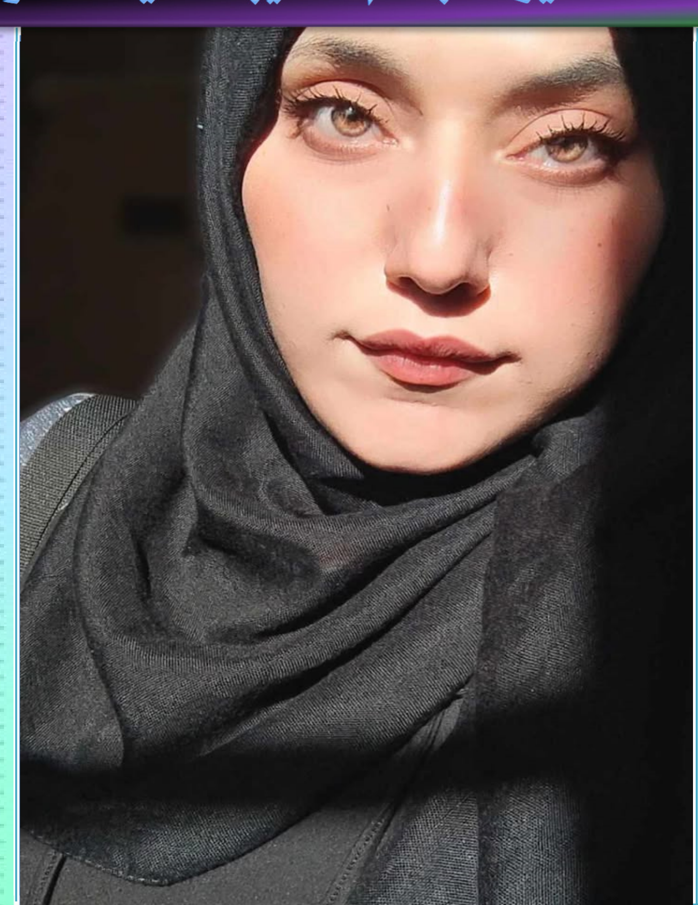
فهمتَ عاجلاً أم آجلاً

أدركتَ أم لم تدرك

إنَّ نحيبَ القدرِ الذي تسمعه هذه المرة هو ذاته صوتُ هزقه في مواعيدَ أُخرى ستنحبُ فيها أنت مع القدر لَن تفهمَ أبداً إذا كنتَ رابحاً أم خاسراً حتى بعدَ انتهاءِ المعركة، حتى عندما تختمُ التجربة لن تحسمَ النتيجة، لا تكهن ولا تخمين، لا حدسٌ ولا يقين سوفَ يُساعدكَ بأن تفهمَ كيفَ يفوز المرء وكيف تكون هيئة الخسارة.

مع كل هذا التعقيد عليكَ أن تُحارب بدونِ أن ترجو النتيجة لأنك لن تعرفها أبداً

—ولو كان السؤال لِمَ المجابهةُ إذاً؟



حتى لا تزيدَ متاعبُ الحيرةِ مَتْعَبةً أُخرى، مَتعبةُ العجز"!

كتب مارتن في خانة البحث على يوتيوب:

Solider of Fortune

ثم اختار من بين النتائج الأغنية الشهيرة لفرقة Deep purple وقام بتشغيلها على رتمِ الأغنية وكلماتها أخذَت الذكرياتُ تؤجج دوامةً من الأفكار والتساؤلاتِ حولَ مصيرها، وهل سيستقر في حياته من أجلها فتقيده أو ينجو منها وينأى عن أثرِ فورتونا وعشوائيته!؟ " فورتونا" ربة الحظ التي لم يؤمن بها لكنه أكثرُ مَن شهدَ أثرها واستدلَّ على غرابةِ اختياراتها وعبثيتها.

يغمرهُ خوفٌ من مسؤوليته اتجاه الطفلةِ التي وجدها في أثناءِ عودته من حانةِ The Admiral's cup في حي

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هَوى)

حي Fells Point في بالتيمور، يتساءلُ ما قصتها وكيفَ لتلك الطفلة أن تظهر له فجأةً جاعلةً إياه يكترثُ للوجود أول مرة في حياته، شخصٌ مثله قوانينُ حياته عمليةٌ وقائمةٌ على النفعية تظهرُ طفلةٌ رضيعةٌ أمامه وفجأةً يرى نفسه مسؤولاً عنها ومهتماً لأمرها ولا يستطيع أن يتجاوزها أو يتملص من القدر بعيداً عنها.

"اسمها إليانا" هذا ما قالته ممرضةٌ في المركز الطبي لجامعة ماريلاند ثم أرشدته إلى وحدة العناية المركزة لحديثي الولادة حتى يطمئنَّ عليها.

من بين كل الأطفال الخدج استطاع أن يميزها مع أنها لم تمكث بين يديه سوى سبع دقائق ريثما وصلَ الى المركز لكن شيءٌ كان أعمق من أية آصرة قد ربطه بها ثم وبعدَ أن اطمأنَّ عليها عادَ إلى مكانِ عمله مُثقلاً بحِملٍ لا يقدرُ عليه.

جلس على كرسي المكتب وراح يمسد صدغيه في محاولةٍ لتهدئة صخبِ الأفكارِ من أسئلةٍ تتردد ولا إجابة لها.

"إيليانا" الطفلة التي خلقت في حياته مشاعراً حاولَ جاهداً أن لا يعيشها، كان يكره فكرة وجود ابنٍ له وينظر للعائلة على أنها عائقٌ يتنافى مع براغماتية الحياة لكن رغمَ كل حرصهِ على أن لا تنتقلَ جيناته إلى فردٍ جديدٍ يأتي إلى هذا العالم ها هو ذا أمامَ نوعٍ مختلفٍ من الأبوة "أبوةٌ قدرية".

"I guess I will always be a solider of Fortune"

أخذته تلكَ الجملة من الأغنية إلى أيام ترحاله وأصبحت الصور تتوالى في رأسه ويتذكر الأماكن والمدن التي مكث فيها واكتشفها، يتذكرذاتاً كانت مولعةً بحياةٍ التي لم يفهمها آنذاك.

روما، براغ، باريس، سالزبورغ، أمستردام، وغيرها من مدن الأحلام كلها وجهاتٌ ظن أنه بوصوله إليها سيغنم بالمراد الذي طالما حلم به، لكن ما إن يصل إلى مكانٍ حتى يفقد المكانُ بريقه فيتخذ آخرَ وجهةً تُعيدُ ما بدأ أن يُفقد وتُحيي ما بدا أنه يموت لكن مثلما يُقلّبُ الصور في رأسه اليوم فإن الأيام قلبته بالأمس إلى أن فقد حسَّ الطيش ولذته، وخسر أمارات الأمان الذي كان مرافقاً لسذاجة الصبا واندفاع الصغر.

أخذتهُ الأغنية إلى مشهدٍ من ذكرى رحلته في رومانيا والجملةُ التي قد قيلَت له في قلعة بران بالقرب من مدينة براشوف في ترانسيلفانيا.

كانت بداياتُ سفره مليئةً بالحماس ونشوة العيش وكانَ مارتن شغوفاً بمعرفة تاريخ المدن التي كان يزورها خاصةً التي كانت عمارتها ذاتَ طابعٍ قوطي فكانَ يحبُّ أن يرى ذات الطابع ولكن بهيئةٍ جديدة تعكسُ تاريخ البلد والمكان و في قلعة بران هذا ما وجده، وجد الطابع القوطي بلمسةٍ رومانية تعكسُ مجدَ المكانِ ورهبته.

كان برفقة صديقه الروماني أندريه والذي كان حريصاً على أن يلاحظ مارتن كل التفاصيل ويجرب الأنشطة المتاحة في قلعة بران وما حولها وعلى أن يشرح لهُ عن تاريخ القلعة وارتباطها الوثيق بالملكة ماريا ملكة رومانيا التي اتخذت من القلعة مقر إقامةٍ ملكي بعدَ أن أهداها إياها الشعب كتقدير لجهودها في وحدة رومانيا.

كانَ ينصتُ مارتن بكل اهتمامٍ لكلام أندريه وكانَ يعيشُ لذة الوصولِ لحلمٍ ظنه مستحيلاً بماضٍ ليس ببعيد، مُعتقداً أنهُ قد انتصر على القدر وعلى كل الليالي التي قضاها خائبَ الرجاء..

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هوَى)

قالَ أندريه بالرومانية:

Soarta nu are ochi, dar vede totul

ثم اتجه إلى عرّاف في الفناء الداخلي للقلعة، استغربَ مارتن ولم يفهم حينها ماذا كان يقصد على الرغم من أنهُ يفهمُ بعضاً من الرومانية والألمانية بسبب أصولِ والدته إلا أنه لم يفهم المقصد من الجملة التي قالها أندريه "القدر ليس له عيون، لكنه يرى كل شيء"! لكنّه تبعهُ وحينها الحياةُ المليئةُ بالحيرة أهدته أعقد ما في التباساتها، كانَ أندريه قد سبقه إلى العراف وطلبَ منه أن يعطي مارتن إشارةً أو تنبؤاً وعلى الرغمِ من أن مارتن لم يكن ذا صلة بالدينِ والروحانيات ولم يعتبر نفسه يوماً غيرَ أنهُ واحدٌ من عشوائيات الوجود ولهذا فكل الكياناتِ التي كانَ الناس يقدسونها لم تعنِ له شيئاً على الإطلاق، إلا أنه ومن باب فضولٍ ساخر تقدم إلى طاولة العراف الذي أخذَ يخلطُ أوراقَ التاروتِ بينَ يديهِ بخفة ثم طلبَ من مارتن أن يسحبَ ورقة وهذا ما فعله عن غير قناعة. أخذ العرافُ الورقةَ ثم نظرَ إلى مارتن بإبهامٍ يصعبُ تأويله وقال بالرومانية:

"Îți aduce Fortuna în sac multe lucruri de care vei fugi. De la Fortuna nu poți evita. Amintește-ți mereu că ești o piatră mișcată de zarurile sorții"

"تحملُ لك فورتونا في جعبتها أشياءً كثيرة تهربُ منها، من فورتونا لا يمكنك الهروب، تذكر دائماً أنك حجرٌ يحركه نرد القدر".

ثم أدار الورقة التي كانت تحملُ رمزَ عجلة فورتونا حتى يراها مارتن الذي لم يدرك حينها المعنى من كلامه وكان جل ما يعرفه عن فورتونا أنها إلهة الحظ في الديانة الرومانية القديمة،

أي جعبةٍ وأي نردٍ يتحدث عنهم ذاك العراف؟ بالنسبة لشخصٍ مثلَ مارتن فإن الحياة بسيطةٌ على نحوٍ غيرِ مفهوم كل ما على الإنسان أن يسعى لينال ما يريد ثم ينتصرُ بأن ينال ما سعى لأجله، وبعدها يسجل ذلك فوزٌ لصالحه وخسارة لصالح القدر، هذه القاعدة التي كان يتعاملُ بها قبل سبع سنوات أما الآن لربما ما زال غير مؤمنٍ بقدسية الكثيرِ من الأشياء لكن ما إن صدفَ "إليانا" حتى تأكد من أنه في حالة نزاعٍ دائم مع القدر، بدونِ أية نتيجة واضحة فيخبئ جزءاً يقلبُ ما نعرفه إلى مأساة أو يغير الموازين لصالحه أو لصالحنا، تغييراً لا يدوم ولا نفهمه حتى لو عشناه.

كان حينها في السادسة والعشرينَ من عمره وما زالَ مُفعماً بالحياة متمسكاً بها أما الآن فلقد خمدت لهفةُ الروح القديمة إلى أن ظهرت "إليانا" فشيءٌ من تلك اللذة قد عاد، لذةٌ مختلطةٌ بخوفٍ مع ألف تساؤل، تجمعُ تناقضات المشاعرِ كلها في ذاتِ الوقت، هل هي ما كانت تخبئه فورتونا له؟ هل كان العراف محقاً؟ أم إنها مصادفةٌ يفسرها دماغه بطريقة يحاولُ بها استيعاب الحدث.

لم يفهم مارتن العالم أبداً، ولا أحد يستطيع أن يفهمه ! الفرق فقط أن أحداً يدرك هذه الحقيقة وآخر ما زال عالقاً في الغفلة.

قاطعَ الأغنية اتصالٌ من المركز الطبي الذي تمكثُ فيه إليانا فأجابَ مسرعاً

قال صوتٌ خالٍ من أي مشاعر:

أنا الطبيب صاموئيل غارسيا من قسمٍ

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هَوى)

قسمِ الأطفال هل يمكنك مراجعتنا في الحال؟ إن حالة إليانا خطرة وتستوجبُ أخذ قرارٍ من ذويها

أجاب مارتن بصوتٍ مرتجف: نعم في الحال

وفي غضونِ عشر دقائق كان قد خرج من مكتبه ، ثم ركب سيارته واتجه إلى المشفى ،دخلَ مارتن إلى قسمِ الاستقبال وسألَ عن الطبيب صاموئيل غارسيا ،ثم طلبت منه موظفة الاستقبال الانتظارَ ريثما يأتي الطبيب لرؤيته ، لم يتمالك مارتن أن ينتظرَ دقيقتين أو أقل حتى يصلَ الطبيب إذ أن الكثير من الاحتمالات والخيارات أخذت تضجُّ بصخبٍ من حوله ،وصلَ الطبيبُ مسرعاً وتوجه مع مارتن إلى غرفة العناية المركزة للأطفال ثم أشارَ إلى طفلة يميلُ وجهها للزرقة وكان مارتن قد عرفها مسبقاً ثم قال الطبيب: أعلمُ أن شخصاً آخر من عائلتها كان يجبُ أن يقفَ بدلاً منك الآن يشغله أمر وضعها الصحي ، لكن العالم مليءٌ بالمآسي التي تُحمل الإنسان ما لا يطيق ،في الحقيقةِ طبياً إن فرصةَ نجاة إليانا من مرضٍ قلبيٍّ كرباعية فالو فرصة ضئيلة جداً خصوصاً وأن الطفلة كانت قد بقيت ساعاتٍ من الزمن مرميةً في الشارع إلى أن وجدتها أنت كانت احتمالاتُ أن تلقى حتفها أكثر بأضعافٍ من احتمالِ نجاتها ومع ذلك نجت . .

لكن إذا ما نجت من يومٍ بارد أو مأزقٍ أو خطف أو غيره من الاحتمالات التي كانت ستنهي حياتها فهذا لا يعني أنها نجت من الحياة ، حالتها حرجة جداً وحتى لو قمنا بإجراء عملية الإصلاح التي تحتاجها فإن نسبة نجاحها ضئيلة فكانت تحتاجُ إلى إجراء ما يدعى: Blalock–Taussig shunt وهي تحويلةٌ تُجرى قبل مدة لأطفال رباعية فالو مما يسمح بتدفق الدم إلى الرئتين وتُعتبر عمليةً مساندةً تزيدُ من نسبة نجاح عملية الإصلاح ، لكن فيما يتعلق بإليانا فإنها متأخرةٌ جداً تُقدر عمرها حوالي ثلاثة أشهر والأطفال في حالتها تبدأ معالجتهم منذ الولادة ، لا نعلمُ كيف صمدت إلى الآن إنها معجزةٌ إلهية لكن احتمال صمودها أكثر يكاد يكون معدوماً وكونك أقرب ما يكون لمسؤولٍ عنها فعليه يجبُ أن تقرر ما إذا سنجري عملية الإصلاح رغم احتمال فشلها الكبير،أم ستبقى إليانا بصراعٍ ليس بطويلِ الأمد ينتهي بوفاتها .

كان وقعُ الكلمات على أذن مارتن صعباً ويزيد على كاهله الحمل ، يشعرُ اتجاهَها بمسؤولية آباء العالم أجمع اتجاه أبنائهم وتمنى بإلحاحٍ لو أنه خرج أبكر ببضعِ دقائقَ فقط من الحانة تلك ليس لأنه يريدُ أن لا يقابلَ إليانا أو أن يتخلص من الصدفة التي جمعته بها ، بل على العكس كي يكسبَ وقتاً يستطيعُ فيه أن يقتربَ أكثر من فرصة نجاتها لا أو أبكر من ذلك حتى ، لو أنه كانَ معها منذُ أولِ نفس لها في الحياة لكان سيربحُ السباقَ مع القدر والوقت

رد مارتن: كم نملك من الوقت؟

أجاب الطبيب: طبياً نملكُ اليوم فقط ، وبعدها فغالباً ستختنقُ الطفلة..

قرر مارتن أنه يريد أن ينقذها مهما كانت النتيجة يريدُ أن يكسب تلك الطفلة يريد أن لا يخسر وأن لا تكون الهزيمة من نصيبه ، فأجابَ أنه موافقٌ على إجراء العملية لكن ما إن أعلمه الطبيب بتكلفتها حتى شعرَ ببراثنِ القدر بدأت تنال منه فالمبلغ الذي طلبه منه بالكاد يملك ربعه بالإضافةِ إلى أنه عليه دفع نصف المبلغ قبل المباشرة بالعملية ،رغم ذلك

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هَوى)

لم يتردد وما زالَ عندَ قراره بإجراء العملية، كان يريد أن تعيش معه وأن ينعم بالأبوة القدرية للطفلة التي كلما مضت لحظةٌ تعلقت آماله بها أكثر لذا خرجَ مسرعاً من المشفى يريدُ بيعَ كل ما يملك حتى يؤمن المبلغ وتعيش إليانا، بدأ يسأل معارفه إذا كان يستطيع بيع سيارته أو منزله أو كلاهما معاً استغرقَ الأمرُ ساعتين ريثما وجدَ من يشتري منه السيارة بسعرٍ زهيد أما بالنسبة للمنزل فقد وافق صديقٌ له على شرائه بالتقسيط لكن عليه أولاً أن يلقي نظرةً عن قرب للبيت، لم يؤمِّن مارتن سوى نصفِ المبلغ لكن هذا كافٍ للبدء بإجراء العملية وناجى الإله الذي لا يؤمن به أن لا يتخلى عن الهبة التي يريدُ بقاءها مهما كلف الأمر، بعد أربع ساعاتٍ بالضبط أمَّن مارتن نصف المبلغ واتجه بسرعةٍ إلى المشفى يطلبُ مقابلة الطبيب الذي وافق على إجراء العملية مع جعلِ مارتن يوقع على ورقة يقبلُ فيها إخلاء مسؤولية المشفى في حالِ حدث مكروه للطفلة وتؤكد درايته المسبقة باحتمال النجاح الضئيل وقع مارتن ثم رافق الممرضة التي بدأت تجهز إليانا للدخول إلى العملية، هل ستدركُ تلك الطفلةُ كم غيرت في وقتٍ قصيرٍ حياته؟ هل ستنجو أدرك مارتن أنه على كل الأحوال لن يعود كما كان قبل أن يجد إليانا لكن بدأ يرسمُ أحلاماً تطمئنه وترجح كفة آماله فيقول كلماتٍ وجمل يجابه بها خوفه (ستنجحُ العملية، ستكون بخير، ستكبر وتعرفني، سأكون معها، من المستحيل أن يهديني إياها القدر وينتزعها مني، من المستحيل أن يقربها من فرصة النجاة ثم يقصيها عن تلك الفرصة) قاطع صوتُ الخط المستقيمِ لجهاز ضربات القلب كلماته، وجعلَ الرعبَ يجتاحه ثم تهاوت أمامه جميع أحلامه، نظر إلى الممرضة علها تحملُ ما يعطيه إشارةً بأن الأمور عكسَ ما تبدو عليه لكن تلك الأخيرة ما كان لها سوى أن تطلبَ الطاقم الطبي الذي أتى مسرعاً وأبعد مارتن عن الغرفة ثم بدأ بإجراءاتِ الإنقاذ للطفلة، حاول الطبيب فعلَ كل ما بوسعه لكن الخط المستقيم يأبى أن يعبر عن ضرباتِ قلبٍ طبيعية..

لقد ماتت إليانا..

خرجَ الطبيبُ إلى مارتن الذي انهارَ حالما سمع الخبر، لم يكن يريد بحياته شيئاً مثلما أراد هذه الطفلة، ولكن لؤم القدرِ غلبه وسحبها منه بأبشع الطرق حيثُ أوصله إلى منتصف الطريق ثم تركه حائراً صفرَ اليدين وأبعد ما يكون عن وجود منا له معه.

بعدَ أسبوعٍ من الصدمة أخرجَ مارتن ورقتين ليكتب عليهما رسالتين يعرف حق المعرفة أنهما لن يصلا إلى المرسل إليهما لكنه مع ذلك كتب

الرسالة الأولى:

"من مارتن إلى إليانا

لن أتخطى يوم خطفك القدر من بينِ يدي، ولن أتخطاكِ أبداً، ستبقينَ الحلم الذي بدأت ألمس تحققه قبل أن يتحول إلى كابوس، الحلم الذي كنتُ مستعداً أن أهديه العالم كي يتحقق، ستبقين مخلدةً في ذاكرتي ووجودي إلى أن نلتقي في حياةٍ أخرى ننتصرُ بها على القدر وتكونينَ هِبةَ حياتي التي لن تغيب أبداً

مارتن"

أما الرسالة الثانية :

"من مارتن إلى فورتونا

كم من الصعبِ النجاةُ منك، مهما كنا نظن أننا بمنأى عن عشوائيتك أو أننا مختبئين جيداً من تقلباتك فإننا في الحقيقة

إليانا (قصة قصيرة) بقلم الأديبة: هيا خاشوق(هَوى)

مكشوفينَ لكِ في أآمن الأماكن ، لن نكسبَ رهانَ الحياة معكِ أبداً والفرص التي تأتينا من السهل أن تذهب ، والهبةُ التي تعطينا إياها ليس شرطاً أن تبقى معنا ، أعلمُ الآن ماذا كان يقصدُ عراف رومانيا ، كان يقصدكِ هنا فورتونا ، كان يقصدُ كيف سلبتِني النعيمَ بعدَ أن أهديتني إياه ،إذا ما كان هناك حياة أخرى سأجدُ إليانا ، ستُشفى ، ستنجحُ العملية، ستبقى ابنتي من القدر، وسننتصرُ لمرة واحدة عليكِ ،في حياةٍ نستطيع فهمها غير هذه"

مارتن

فقدَ مارتن لذة الحياة عندما حصلَ عليها ،عاشَ في سباقٍ كانَ فيه خاسراً لا فوز له ، وهذه هي خبايا القدر، ينقلنا بأغرب الطرق بين الحالكِ والناصع ، بين الأمل والخيبة ،وبين الحياة والموت لنذوق مرارةَ واحدٍ ولوكنا على قيدِ الآخر.



جامعة ميريلاند، تقع في (كوليج بارك) الولايات المتحدة الأمريكية